

الفصل الثلاثون

العرب في الأندلس (تتمة)

٨٧١ - ١٠١٦ هـ ، ١٤٦٦ - ١٦١٠ م

الكفاح الأخير - حصار غرناطة - تسليم غرناطة - غدر
فرديناند وأزابة - اضطهاد ملهى أسبانيا وإخراجهم -
العرب يفقدون أسبانيا

لما توفى ابن إسماعيل خلفه ابنه الأكبر على الملقب بأبي الحسن ، وكان بطلاً شجاعاً موهوباً ، ولو كان يؤازره شعب موحد لضارح أسلافه في البهاء والفخامة ولحافظ على مملكته ، ولكن الواجب الذى كان ملقى على عاتقه فى تلك الظروف السيئة وانقسام شعبه ، كان يدعو إلى اليأس والقنوط ، وبما زاد فى قرب وقوع الكارثة والحرب إهماله شؤون الدولة وسرعة غضبه وثورة ابنه .

وفى سنة ١٤٦٩ تزوج فرديناند من أزابة فتوحدت بهذا الزواج قوات قشتالة وأراغون وليون وأصبحوا تحت راية واحدة ، وكان الزوجان متعصبين يريان من واجبهما الدينى حرق المراطقة الكفار ، فاستقر رأيهما على وضع حد للبقية الباقية من المدنية فى أسبانيا ، فترقبا بصبر ذاهب انتهاء مدة الهدنة التى كانت قد عقدت بينهما وبين أبى الحسن بناء على طلبهما للاضطرابات التى كانت ناشبة وقتئذ فى بلديهما ؛ غير أن ملك غرناطة برفضه دفع الجزية التى كان متفقاً عليها بين والده وبينهما أثار حقدما وخلق بذلك الفرصة التى كانا يتوقان منذ أمد طويل إلى انتهازها ، فأكادت تنتهى مدة الهدنة حتى بدأ أبو الحسن نفسه بالزحف على مدينة الزهراء فى يوم عاصف ماطر ، ففتح باستيلائه على هذه المدينة هوة سحيقة من التعصب والوحشية انهارت سيولها عليه وعلى مملكته ، ولم يحل

تولية أبى الحسن
على

دون صب جام غضب فرديناند وزوجته على غرناطة إلا المنازعات التي كانت ناشبة في شمالى أسبانيا . وقد رأى المفكرون العرب في طيش الملك نذيراً للخراب وأعرب أحد الفقهاء في حضرة الملك عما يجيش بصدورهم بقوله : « إن قصور الزهراء سوف تنهار على رؤوس المسلمين ، وإن أيام دولة المسلمين في أسبانيا أصبحت معدودة ! » . ولما رأى ملك قشتالة صعوبة الاستيلاء على الزهراء حيث تقيم قوة كبيرة من جيش أبى الحسن ، هجم فجأة في الليل على مدينة الحما الواقعة على سفح الجبل على بعد خمسة عشرة فرسخاً من العاصمة ، وكانت في موقعها تحمى الطريق الممتد إلى منطقة غرناطة ؛ ولكن القشتاليين بالرغم من دفاع المدينة المستميت استولوا عليها عنوة ، وأعملوا السيف في رقاب أهلها ، وأسروا النساء والأطفال الذين كانوا قد اعتصموا بالجامع . وهكذا سقطت الحما التي كانت يوماً ما مدينة زاهرة فاستحالت الآن إلى مقبرة شاسعة ، وأصبحت شوارعها الجميلة التي كانت متنزهاً لشعب سعيد أكواماً تكدست فوقها أشلاء الموتى فاتضح بسقوط الحما مصير غرناطة وارتفع عويل المسلمين على ما خبأ لهم القدر فصبوا لعناتهم على مسبب هذه الكارثة ؛ ولكن أبا الحسن لم ييأس ، فقام بمحاولتين للاستيلاء على المدينة انهزم في المحاولة الأولى ، وكاد ينال النصر في الثانية لولا أن جاءت الأخبار بنشوب فتنة في العاصمة بقيادة ابنه أبو عبد الله محمد^(١) ، فتوقف الجيش عن مواصلة القتال وظهرت مساوئ تعدد الزوجات في تلك الأزمة الطاحنة ، وتقرر مصير المسلمين الأسبانيين ، إذ كان لأبى الحسن زوجتان ، واحدة بنت عمه واسمها عائشة والأخرى أسبانية (مسيحية) من بيت كريم واسمها أزابيل ويسمىها العرب بالزهراء ، وكان أبو الحسن يميل إليها ولأطفالها فحسدتها عائشة الزوجة الثانية ، وحرضت ابنها أبا عبد الله على الخروج على أبيه ، ورشت قسماً من الحامية وبعض رجال الدولة ، فنادوا بابنها الفتى ملكاً

(١) واسمه بالأسبانية بو أبديل ويسميه أهل غرناطة بالسلطان الصغير .

عليهم ، وفي الحال أسرع أبو الحسن إلى غرناطة التي أصبحت الآن ميداناً للقتال بين الطرفين ، وعقد مع ابنه مهادنة قصيرة تمكن على أثرها الملك الكهل أن ينقذ مدينة (لوجا) أو لوشا التي كان يحاصرها القشتاليون ويستولى على مدينة كانيت ، غير أن هذا النجاح لم يكن له فائدة تذكر ، إذ علم أن ابنه الثائر نجح في الاستيلاء على قلعة الحمراء ونادى بنفسه ملكاً على كافة غرناطة ، وعندئذ ارتد أبو الحسن إلى ماله ، حيث كان أخوه أبو عبدالله محمد الملقب بالزغال والياً عليها ، ولم يبق في قبضته غير مدينتي وادي آش والبسة .

أراد فرديناند وإزالة أن يثارا للهزيمة التي لحقت بجيوشهما بظاهر مدينة لوكسا ، فسيرا قوة كبيرة على ولاية مالقة ، ونجحاً نجاحاً كبيراً في بادئ الأمر ، « إذا جاز لنا أن نطلق كلمة النجاح على حرق المزارع ، وقطع أشجار الزيتون والكروم ، وتخريب القرى المزدهرة ، وسلب المواشي ، وذبح السكان الآمنين »^(١) . وبينما كان جيش قشتالة منهمكاً في أعمال التخريب على هذا النحو ، مطمئناً آمناً ، هاجمه الزغال وقائده رضوان في الجبال الشرقية وأوقع به مذبحة فظيمة ، ولم تكن قضية العرب قد بلغت حداً يحمل على اليأس والقنوط ، غير أن حادثة جديدة وقعت في تلك الأثناء كان سببها « أبو عبدالله » فغيرت مجرى الحوادث ، وذلك أن هذا الخائن السيئ الحظ ، أراد أن ينافس عمه « الزغال » الذي كان اسمه الآن على أفواه جميع أهل غرناطة ، فهجم على مدينة لوسينا التابعة لحكومة قشتالة ، ولكنه أصيب بهزيمة مروعة ووقع أسيراً في أيدي الأعداء ، وفي تلك المرحلة كان أبو الحسن قد تنازل عن العرش لأخيه الزغال وانسحب مع عائلته إلى مدينة اللورة ، ثم انتقل منها إلى المونيكار حيث توفي بعد مدة قصيرة .

رأى فرديناند وإزالة في أسر أبي عبدالله معونة إلهية ساقتها إليهما

(١) كوندو .

الأقدار لنجاح قضيتهما ، إذ وجدا فيه أليق أداة لبث بذور الشقاق في غرناطة وتقسيم قواها العسكرية إلى شيع وأحزاب ، فتقوضت بذلك دعائم تلك الممملكة التعسة . ولما كان أبو عبد الله متقلبا ضعيف الرأي ، صغير النفس ، فقد غدا آله صماء في أيدي فرديناند الحاد الذكاء ، الذى « حالما شعر بأنه هو والمملكة قد استوليا على إرادة ذلك الأمير المنكود ، أرسله إلى غرناطة مجهزا بالرجال والأموال والعتاد ، فاستطاع أبو عبد الله بمساعدة القشتاليين — الذين كان يتألف منهم حرسه — وعدد من أهل غرناطة الذين رشتهم عائشة ، أن يستولى على ضاحية البزين ، وهكذا وقعت غرناطة مرة أخرى فى حرب داخلية طاحنة ، فاقترح الزغال على ابن أخيه أبى عبد الله أن يحكم البلاد سوية ويشتركا فى صد العدو المشترك ، ولكن هذا الفتى التهوس الضعيف رفض كل اقتراح . وانهز ملك قشتالة فرصة هذا الكفاح بين الزغال وأبى عبد الله واستولى بالتتابع على اللورة وقصر بونيله ورنده ، وبعض المدن الأخرى المهمة ، أما لو كسا التى عجز جيش قشتالة عن فتحها من قبل ، فقد أذعنت فى سنة ١٤٨٦ بالتسليم ، وبعد سنة سقطت مدينة مالقة ؛ ولما حاول الزغال إنقاذ المدينة صمد له أبو عبد الله الذى كان من الدناءة بحيث هنا فرديناند على احتلاله إياها ، ومع أن أهالى تلك المواقع سلموا على شرط صيانة أرواحهم ، إلا أن فرديناند حالما استولى عليها لم يتردد قط فى نكث عهوده معهم ، وأمر بإدخال جميع السكان فى ربة المبودية أو نفيهم من ديارهم ، ولم يبق فى أيدي الزغال غير بايزه وألميره وفيه وخوسكار وقليل من المدن الأخرى ، وقد تحالف فرديناند سرا مع أبى عبد الله على أن يعطيه كافة البلاد التى يستولى عليها من عمه الزغال ، وركن هذا الخائن البأس إلى تلك المواعيد الخلابية ، خشية أن يطرده عمه من غرناطة لو هو أمسك عن مساعدة ملك قشتالة ، وهكذا تمكن فرديناند من الزحف بقواته الكاملة على بايزه ؛ ولما يش الزغال استنجد بملوك أفريقية

المسلمين الذين كانوا يتقاتلون مع بعضهم البعض فلم يلبوا طلبه ؛ ومع ذلك فقد دافع المسلمون دفاعا مستميتاً ، ونجح الزغال عدة مرات في إجلاء جيش قشتالة عن أسوار عاصمته ؛ غير أن فرديناند بمهارته العسكرية اضطر المدينة إلى الإذعان بالتسليم ، ولكن القشتاليين ، على ما جرت به عادتهم ، نقضوا الشروط التي كانوا قد عقدوها مع أهل المدينة وطردهم من منازلهم ، واستولى الملك والملكة الصالحان على أموالهم ومواشيهم ، واستطاعا ، بفضل المال والرشوة ، أن يستوليا شيئاً فشيئاً على قلاع مدن البُشرات ، وما هو إلا أن التجأ الزغال الذي كان يحارب إلى ذلك الحين محاربة الأبطال إلى تقديم خضوعه إلى فرديناند وإزالة اللذين أقطعه منطقة أمدارا كس ولقباه بالسلطان ، ولكنهما لم يسمحا له بالبقاء مدة طويلة ، إذ أمرا بنفيه بعد سنة إلى أفريقية ؛ وعندئذ لم يصبح في أيدي المسلمين غير غرناطة وضواحيها ، ولم يلبث أبو عبد الله الذي فرح بسقوط الزغال أن أدرك خطأه في الاعتماد على أصدقائه المسيحيين ، فما كاد الزغال يرحل إلى أفريقية حتى أمر « فرديناند » عبد الله بتسليم غرناطة ، ولما رفض طلبه أعمل السيف والنار في منطقة غرناطة الحصبة ، وحول منطقة فيفا إلى أرض بلقع ، ثم ارتد منها إلى قرطبة ، وأصبح القتال الآن أروع من ذي قبل ، إذ كان يتوقف على هذه للمركة مصير المسلمين الذين هبوا بزعامه موسى بن أبي الغزان من أشهر قورسانهم إلى القتال بعد أن شدد عزائمهم ، وأخذوا يرضخون على بلاد العدو ونجحوا في الاستيلاء على بعض المواقع الأمامية ، غير أن فرديناند هم على سهول غرناطة في أربعين ألف راجل وعشرة آلاف خيال وشرع من جديد يعمش في البلاد بالنار والسيف ، فأتلف المحاصيل الزراعية والأشجار المثمرة وأحرق المنازل وذبح السكان الآمنين ، وشدد الحصار على آخر معقل من معاقل المدينة في أسبانيا ، فاعتصم أهل فيفا بالعاصمة ومحمدوا للعدو عشر سنوات وناضلوه على كل شبر من أرضهم ، وكانوا يواجهونه باستبسال

عظيم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، غير أنه لم يبق لهم الآن سوى العاصمة التي تحصنوا داخل أسوارها في يأس ممض ، وقاوموا العدو ردحا من الزمن ، ونظرا لسهولة المواصلات بين العاصمة والبشرات كانت ترد المؤونة إلى المحصورين من منطقة سيرانيفادة ؛ وفي تلك الأثناء أخذ موسى يناوش الأعداء ويقتل منهم يوميا عدداً من أحسن جنودهم مما أثار سخط فرديناند الذي أمر بتشديد الحصار على العاصمة فضاقت أهلها ذرعاً بذلك ؛ ولم يكد يحل شهر صفر حتى عمت المجاعة وحاول الأهالي للمرة الأخيرة الذود عن حريتهم ، غير أن الحامية كان قد أنهكها الجوع ، فاستقر رأيهم على التسليم بعد أن فتكت المجاعة بالسكان فتكا ذريعاً وعملت فيهم ما لم تعمله القوة المغيرة طوال هذه السنين ؛ وفي الحال أرسلوا وفداً إلى معسكر قشتالة لوضع شروط التسليم ، وبعد مفاوضات طويلة تم الاتفاق على الشروط التالية ، وهي : إذا لم ترد المسلمين بحجة من البر أو البحر خلال شهرين سلموا المدينة للمسيحيين على أن يؤدي السلطان والقواد والوزراء والأعيان وجميع أفراد جيش المسلمين يمين الطاعة والولاء لملك قشتالة ؛ وأن يمنح أبو عبد الله بعض الأملاك في البكراس ؛ وأن يؤمن ملك قشتالة المسلمين على أرواحهم وأملاكهم وأسلحتهم وخبولهم دون قيد أو شرط ؛ ويسمح لهم بممارسة طقوسهم الدينية ، وأن تبقى جوامعهم ومؤسساتهم الدينية مصنونة سالمة ؛ وأن يحتفظ المسلمون بعوائدهم ولقبتهم وزبيهم ، وأن يفصل في خصوماتهم قضاة من بنى جلدتهم ، وأن تنظر في معاملاتهم مع المسيحيين هيئة مختلطة من القضاة المسيحيين والمسلمين ؛ وألا يجبروا على دفع ضريبة فوق الضريبة الرسمية ؛ وألا يدخل المسيحيون عنوة منازل المسلمين ؛ وأن يفك سراح أسراهم ، ويسمح للذين يرغبون في الهجرة إلى أفريقيا بالسفر في خلال مدة معينة ، وأن تنقلهم سفن قشتالة دون استيفاء أجور علاوة على أجور السفر الاعتيادية ، وألا يمنع أى مسلم بعد انقضاء المدة القانونية من اللحاق بإخوانهم المهاجرين إذا دفع أجرة السفر وعشر أمواله المنقولة ؛ وألا

يضطر أو يعاقب المسلم بمجرمة غيره ؛ وألا يجبر أى مسيحي اعتنق الإسلام من قبل على التخلي عن إيمانه الجديد ، وإذا رغب مسلم في اعتناق المسيحية يجب أن يناقشه قاض مسلم بحضور حاكم مسيحي بضعة أيام ؛ وأن يحرم على الجنود المسيحيين إساءة معاملة المسلمين ، وأن تحمي الحكومة المسلم الذي يرغب في السفر أو السكنى بين المسيحيين وأن تحافظ على أملاكه وسلامته ، وألا يحمل المسلمون علامات فارقة كما يحملها اليهود .

ولم يعترض على هذا الإذعان والتسليم غير موسى الذي حذرهم من الاعتماد على مواعيد القشتاليين الكاذبة ، وحرصهم على أن يهبوا دفعة واحدة لفك الحصار ومما خاطبهم به : « إن الموت أعذب من الذل والإسار ، وإن من الحال أن يفي القشتاليون بوعودهم لأنهم متهيثون للبطش بالمسلمين ، ثم قال : إن الموت في ساحة الوغى أعذب مما أعدته لنا الأقدار من إهانة وتحقير وإذلال ونهب وتدنيس للجوامع واتهاك لشرف النساء ، ثم ختم كلامه قائلا : سيكون مصيرنا الاضطهاد والظلم والاستبداد لأن الأعداء آلوا على أنفسهم أن يستأصلوا شأفتنا » . ولما رأى موسى أن كلماته لم تستهضهم الحاضرين الذين جاءوا ليسلموا المدينة نظر إليهم نظرة احتقار وامتنطى صهوة جواده ثم خرج من باب المدينة لا يلوى على شيء ، ويقال إنه لاقى في طريقه جماعة من الفرسان المسيحيين وكاد يتغلب عليهم لولا أنه سقط من على ظهر جواده ، ولكنه مع ذلك أبى أن يستعطفهم فظل يمعن فيهم وهو جاث على ركبتيه حتى وهنت قواه فألقى بنفسه في النهر وابتلعتة الأمواج على الفور .

وكان المسلمون قد بعثوا بالرسل يستنجدون سلطان مصر والروم ، غير أن مدة الإنذار كانت قد مضت دون أن يلبي أحدهم داعي القوث ، وفي ثلاثة كانون الثاني سنة ١٤٩٢ استولى ملك قشتالة على غرناطة ، وفي الواقع كانت ساعة استبدال الهلال بالصليب على قلعة غرناطة من أهول الساعات التي مرت

على المسلمين ، إذ كانت نذيراً بالقضاء على الحياة الفكرية والنشاط الصناعي في بلاد الأندلس .

وبعد هذه المأساة الدامية سار أبو عبد الله — أبو أبديل كما يسميه الأسبان — مع أسرته في الطريق قاصدين البكراس حيث كان ينوى الإقامة فلما وصل جبال بادول ألقي نظرة طويلة على غرناطة ثم أجهد بالبكاء فقالت له أمه المشهورة بالدسائس : لماذا تذرف الدمع كامرأة على فقد ما لم تستطع الدفاع عنه كرجل ! وهناك في « اندارة » عاش قليلا من الزمن ، غير أن فرديناند رأى وجوده في أسبانيا خطراً يهدد مملكته ، وفي الحال أمر بنفيه إلى أفريقية فقصده الأمير البائس مدينة فاس وظل بها حتى وافته منيته سنة ١٥٣٨ م ^(١) .

وفاة أبي عبد الله

لم ينو فرديناند الورع ولا إزالة الصالحة التقيد بشروط المعاهدة ، إذ لم ينقض طويل وقت على المسلمين حتى تحقق لديهم قول بطلهم الشجاع ، وبالأخص عند ما شاهدوا ما حل باليهود الذين عاشوا في رخاء ورفاهية في ظل الحكومة العربية وأصبحوا الآن هدفا لأطباع ملوك قشتالة . وفي سنة ١٤٩٣ بينما كان فرديناند الذي كان يخفي سياسة الخيانة والغدر تحت رداء الدين والتقوى ويسرف في عودته للمسلمين أصدر مرسوما يخير فيه اليهود بين التنصر والهجرة ، وطقق يمن في اضطهادهم وتعذيبهم وحرقتهم ؛ ثم بدأ يسحق العهود التي كان قد قطعها على نفسه مع المسلمين ، ولم يدخر وسعاً في استعمال جميع وسائل الوحشية ، فحظر عليهم اتباع قوانينهم الشرعية وتأدية طقوسهم الدينية ، وأكره الكثير منهم على التنصر ففاضت قلوبهم لوعة وسخطا ، وشق أهل البزير عصا الطاعة ، غير أن الحكومة اعتزمت هذه المرة سحق الثورة بما تملك من قوة فامعنت في التقتيل والتخريب . وفي سنة ١٤٩٨ عرضت عليهم إما التنصر أو الإعدام ، فاستكان

(١) ترك ولدين اسمهما يوسف وأحمد ، وقد زار أحد كتاب العرب تلك المدينة في القرن السابع عشر فرأى أحفادها في غاية من الفقر والموز يعيشون على الصدقات التي كانوا ينالونها من إدارة الأوقاف .

البعض ، ولكن الأغلبية تمسكت بدينها واعتصمت بجبال الألب ؛ فأرسلت الحكومة إليهم جيشاً مزقهم شرمزق ، ونسف الجامع الذى كان قد التجأ فيه النساء والأطفال ، وبالرغم من جميع هذه النكبات التى حلت بهم ، فقد دافعوا عن أنفسهم دفاع الأبطال ، وفى سنة ١٥٠١ هزموا الأعداء فى جبل بلنسيه ، فصدر قرار بنفيهم إما إلى مراکش أو تركيا أو مصر ، ومصادرة أملاكهم المنقولة وغير المنقولة ، وخيرت البقية الباقية منهم بين السيف وبين اعتناق المسيحية ؛ ومع أنهم أكرهوا على التنصر أكرهاً ، فقد ظلوا فى قرارة نفوسهم مسلمين مخلصين ، يواظبون على الصلوات الحس ، ويؤدون الوضوء فى أوقاتها^(١) ، وكانوا يمتنون جد العناية بنسل أطفالهم من الماء المقدس حالما يعتمدون عن أعين رجال الدين ، وكانوا يعقدون النكاح سرا بعد أن تجرى لهم المراسيم الكنسية . ولو كان ثمة حكومة شريفة تحترم اليهود التى قطعتها على نفسها عند الاستيلاء على مدينة غرناطة ، لما أقدمت على إثارة خواطرهم بهذه الصورة الشنيعة ؛ غير أن ملوك أسبانيا لم يكونوا من شرف النفس والأمانة بحيث يوفون بعهودهم مع الموريسكيين ، وقد وضعت الحكومة هؤلاء « المسيحيين بالاسم » تحت رقابة شديدة ، وكانت أية تهمة توجه إلى أحدهم كفيلة بأن توقفه تحت طائلة العقاب وتعذيب ديوان التحقيق ، فسطمت محارق ديوان غرناطة وقرطبة وأشبيلية لنتلهم يوماً عدداً من الرجال والنساء والأطفال ، ولأجل أن تحول الحكومة دون قيامهم بأية ثورة أصدرت قانوناً جديداً تحرم فيه حمل السلاح على الموريسكيين ؛ وهكذا قدر على أخلاف الشعب الذى احتل أسبانيا أن يتحمل الاضطهاد بصبر ممض . وفى سنة ١٥٦٨ أصبحت حالتهم لا تطاق ، إذ لم يكتف المسيحيون بتدمير أملاك المسلمين لحسب ، بل أخذوا يعاملونهم معاملة الأرقاء فى الأراضى التى كانوا يحكمونها ، وحاول

المسيحيون جهدهم استئصال شأقتهم والقضاء على آخر المظاهر والتقاليد التي تربطهم بماضيهم وتراثهم القوي . وكان فيليب الثاني المتهوس الآخرق متربماً في تلك الأثناء على عرش أسبانيا ، وكان رئيس أساقفة غرناطة لا يقل عنه تهوساً وبربرية ، فخرضه على إصدار قانون يحرم عليهم أن يتكلموا العربية أو يتعاملوا بها ، وألزمهم بلبس القبعات وارتداء الملابس الأوربية ، كما حظر عليهم الاستحمام واتخاذ الأسماء العربية ، وارتداء الثياب الوطنية ، ومزاولة التقاليد العربية والمظاهر القومية ، وعدم استعمال سوى القشتالية في التخاطب والتعامل ، وعندئذ بلغ اليأس بأحفاد المنصور ذروته ، فالتجأوا إزاء هذا العسف المضنى إلى السلاح مؤثرين الموت مسلمين مخلصين لدينهم ، ولكن كفاحهم كان لا أمل فيه ولا رجاء . وبعد أن دامت الثورة ثلاث سنوات اجتاحتهم دونجوان بجيوشه ، فأمنع فيهم التقتيل والتخريب وذبحهم ذبح الأنعام ، فقتل الرجال والنساء والأطفال على حد سواء ، وغدت قرى ووديان البكراس مقابر شاسعة لعظام المسلمين ، حتى إن الذين التجأوا إلى الكهوف لم ينجوا من هول المذبحة ، إذ أشعل المتهوسون النار على أبواب المغارات وقتلوا من بداخلها خنقاً بالدخان ، وبالرغم من كل هذه المذابح المروعة ظلت بقية منكودة من هؤلاء العرب المستنصرين أو كما يسمونهم بالمورييسكيين في بلنسية ومورسية .

وفي سنة ١٦١٠ م أنجز فيليب الثالث العمل الذي كان قد بدأ به والده ، وهو نفي زهاء نصف مليون من هؤلاء البائسين إلى أفريقية ، فأمر بإزاحهم على الساحل . أما سكان الشمال وكان لا يقل عددهم عن مائتي ألف نسمة ، وهم البقية الباقية من ذلك الشعب القوى الباسل ، فقد طردوا من غير ما شفقة ولا رحمة إلى فرنسا حيث اضطر من بقي منهم حياً بعد مذابح الأسبان وأهوال الطريق إلى النزوح إلى البلاد الإسلامية . وبلغ عدد الذين طردوا من أسبانيا

منذ سقوط غرناطة حتى عهد الملك فليپ الثالث ثلاثة ملايين نسمة ، وهكذا اختفى من أرض الأندلس شعب ذكى مستنير شجاع بعث بمجده واجتهاده الحياة فى أسبانيا التى كانت تئن تحت نير القوطيين ، لحول بلاد الأندلس جنة فيحاء وحمل مشعل العلم والعرفان ، بينما كانت الممالك حولها تتخبط فى دياجير الجهل ، كما نشر الثقافة وبث المدنية ووضع أسس الفروسية ، بل لا نعدو الحق إذا قلنا إن الشعب العربى خلق أوربا الحديثة خلقاً . والآن يحق لنا أن نتساءل ما الذى استفادته أسبانيا من طرد العرب ؟ وجواب ذلك أن الأندلس الجميلة التى ظلت بضعة قرون موطن الثقافة ومركز العلوم والفنون تدهورت ثانية إلى حالة العقم وأصبحت علماً على تدمير الثقافة والأخلاق ، فاكتفتها وحشية أبدية بعد أن كان العرب قد أضاءوها بنورهم ، وفى الواقع لم تتغير الطبيعة إنما الذى تغير هو الشعب الأسبانى وديانته . ومع ذلك فلا يزال بعض آثار العرب تعلو الخرائب التى ملأت تلك البلاد المقفرة ، ومن وسط التماثيل والخرائب الصامتة يرتفع صوت الحق ينادى بمجد وحضارة العرب المنهزمين ، وأنحلال وتدهور الأسبان المنتصرين^(١) . ويصف كاتب أوربى آخر الخسارة الفادحة التى حلت بأسبانيا وكان سببها التهوس الدينى فيقول : « لم يعرف الأسبان عندئذ ماذا كانوا يفعلون ، إذ أنهم فرحوا أشد الفرح وطربوا أشد الطرب بنفى العرب ، وذلك لأنهم سثموا الحياة الرتيبة ، وأخذ « لوب دى فيفا » يغنى أغنيته المثيرة التى مطلعها « الحكم العادل » ، ولم يدروا أنهم قتلوا إوزتهم الذهبية » . لقد كانت أسبانيا منذ قرون مهد المدنية ومركز العلوم والفنون وكافة ضروب النشاط الفكرى ، ولم تبلغ دولة فى أوربا ما بلغته أسبانيا على أيدي العرب من ثقافة ورقى ، فتضاءلت عظمة عصور فرديناند وإزابلة وشارلس الخامس إزاء ما بلغته دولة

(١) السيوكوندو وقد كان أسبانيا .

العرب من البهاء والفخامة ، وظل نور أسبانيا بعد نفى العرب ساطعاً برهة من الزمن ، ثم سادت في أرجائها ظلمة حالكة ؛ وأعظم ذكرى لهذا المجد الغابر هي تلك الأراضي القاحلة التي استعالت إليها أسبانيا بعد أن كانت في عهد المسلمين جنة ملاءنة بأنواع المزروعات والكروم ، وذلك الجهل المطبق الخيم على أهلها بعد أن كانت مثالا للذكاء والعلم ، وعلى الجملة فإن أهل أسبانيا المسيحية يستحقون ما وصلوا إليه من التدهور والانحطاط .
